لتجده قبل سنوات قليلة خلت . لقد صار لهـا ضرورة اجتماعية وظرفا اجتماعيا ما كان سابقا .

الجهد الذي بذله الدارس لا يعني الريـادة فحسب ، انه يعني كذلك الدعوة الى مواصلـة الطريق نحو مزيد من التفهم لواقعنا الفلسطيني والعربي ، ونحو ارساء اسس البحث العلمي التي لا تعني بحال غير ارساء اسس البحث العلمي ، اسس العقلانية والتجديد والثورة . مراجعة ومناقشة الدراسات الميدانية ، كمثل كتابنا تتطلب دراية كاملة بمعطيات الموضوع وظروفه وشروطه . انطلق شحادة يوسف ، كما يبدو ، من الصفر ، قام بالكثير من الاحصاءات والاستطلاعات حتى استطاع الوصول الى جملة حقائق ، مما اضطره الى صرف وقت اضافي كان وفره لو ان الطريق كانت ممهدة امامه . هذا يؤكد ضرورة الاطلاع على معلوماته ، الموضوعة تحت تصرف الباحثين في مكتبة مركز الابحاث ببيروت ، كما قال الدكتور انيس صايغ المدير العام لمركز الابحاث ، في تمهيده للدراسة .

وبالرغم من الجهد الكبير الذي بذله ، والملاحظ في سياق هذه الدراسة الصغيرة (حوالي مائة صفحة عدا الجداول في الملاحق) ، فانه يؤكد بتواضع كبير : لم يحاول البحث تقديم دراسة وصفية للحركة النقابية ، « بل عمد الى تسجيل بعض الملاحظات النقدية انطلاقا من تصور للتنظيم الجماهيري الثوري الذي يتناسب مع مهمات النهوض بواقع الحياة الفلسطينية » (ص ١١ — ١٢) .

في الفصل الاول « بعض خصائص الواقع الفلسطيني» ، يبذل الباحث جهدا اضافيا واضحا، لدراسة الاثار الاجتماعية لنكبة ١٩٤٨ على المجتمع الفلسطيني . ان اكبر تاثير لنكبة ١٩٤٨ ، يمكن تحديده في تحطم البنية الاجتماعية والتوزع الجغرافي ، اي انعدام المؤسسة السياسية الواحدة ، والبنيان الاقتصادي — الاجتماعي الواحد . لقد ولد هذا الموضع خصائص سلوكية وتنظيمية جديدة . ولقد تمثلت اهم الخصائص السلوكية الجديدة في « الانهيار الفجائي للاساس المادي للمجتمع عام ١٩٤٨ ، ثم في محاولة التخلص من الوضع المادي الجديد » (ص ١٥) ، نجم عن هذا التغير الفجائي « حدوث فجوة هائلة بين التغيرات المادية والثبوت النسبي في البنيان الفوقي المتمثل في المفاهيم والعادات والقيم القديمة . وأدى هذا الوضع الى توترات على المستوى النفسي والفكري » (ص ١٥) . ويسوق الباحث نتيجة سريعة ، لا استطيع ان اقطع بصحتها او عدمه ، اذ بالرغم من معقولية السياق الذي أتت فيه فكرته القائلة ان الفلسطينيين نتيجة للتناقض القائم بين رغبتهم في الخلاص من واقع نكبتهم ، وبين ادراكهم العميق لصعوبة تحقيق هذه الرغبة ، تولدت لديهم ظاهرة سلوكية « تتميز بالحماس السريع والاندفاع حتى الذروة لدى كل بارقة أمل في العودة ، وبالخمود السريع والانكماش حتى الانطواء ، في اعقاب كل صدمة » (ص ١٦— ١٧) . لكن الا يمكننا تعميم هذه الفكرة لتشمل مجتمعات اخرى بالاضافة الى المجتمع الفلسطيني !!

ويمكن حصر ثلاث خصائص بنيوية للواقع الفلسطيني تتعلق بالوحدة الجغرافية ، والمؤسسة الاجتماعية ، ثم البنية الطبقية . لقد كان المخيم الاطار الجغرافي — المجتمعي للعلاقات الاجتماعية. ويمتاز هذا المجتمع بطابعه الخاص « وتركيبه الاجتماعي — الاقتصادي الخاص . فمن جهة يصعب وصف المخيم بالمدينة او بالقرية او حتى بالحي الفقير . ومن جهة اخرى لا يوجد بين السكان تمايزات اجتماعية حادة . ليس في المخيم ملاك ارض او رأسمال بل جميعهم يكادون يتساوون في الفقر ، ومن يتوفر لديه رأس المال يغادر المخيم اما الميسورون نسبيا من موظفين وباعة فان التمايز بينهم وبين باقي الاهالي ليس صارخا ولا يصل ، بحكم طبيعة العلاقات ، الى التناقض » (ص ١٩) . هذا التكوين الخاص للمخيم، لم يغير العلاقات القديمة ، التي لم تواجه ما يتحداها جذريا ، ونتيجة للشروط المعيشية القاسية ، ظلت العائلة تمثل نوعا من الضمانة والحماية الاجتماعية لافرادها .

على صعيد اخر ، كان تحطم البنية الاجتماعية والتوزع الجغرافي عام ١٩٤٨ يعني تفككا طبقيا للمجتمع الفلسطيني، وحتى في الضفة والقطاع اختل البنيان الطبقي القديم ، فلم يعد هناك طبقات فلسطينية بالمعنى التقليدي : لم يعد هناك بورجوازية فلسطينية ، « بل اصبح هناك «بورجوازيون» فلسطينيون موزعون في عدة أقطار،